تام في إدراك الدلالة ، حتى إن أبا هلال جعله (التعقيد والإغلاق والتقعير) [١] ، ومن المدهش أن رجلا كالجاحظ لم يأخذ المسألة على إطلاقها ، وإنما ربط هذا الاستعمال اللُّغوي بالإطار الاجتماعي له ، فللمتكلم أن يسلك هذا المسلك إذا كان بدويا أعرابيا ؛ لوجود التلاؤم بين طبيعة اللفظة وطبيعة مستعملها ومتلقيها « فإن الوَحْشيَّ من الكلام يفهمه الوَحْشيُّ من الناس .» [٢]

وجواز هذا الاستعمال ليس راجعًا إلى حسن ذاتيٍّ في اللفظة ، وإنما راجع إلى أن كثيرًا من الشعراء كان أعرابيا قد غلبت عليه العجْرفيَّة ، كما أن طبيعة التطّور الثقافي والعلمي استدعت وجودَ هذه النماذج كشواهد على الغريب ، وليس معنى هذا أن الإتيان بها كان يأتي على جهة التطلُّب لها والتكلُّف في استعمالها ، ولكن لجريان العادة والسَّجيَّة بذلك [٣] .

وقد أورد قدامة بن جعفر شعراً فظيع التوحش لأعرابي ورد على رجل فلم يسقه :

أَفْرِخْ أخا كَلْبٍ وَأَفْرِخْ أفـــرخِ
أَخْطَأَتَ وَجْهَ الحَقِّ في التَّطَخْطُخِ
أما وَرَبِّ الرّاقِصاتِ الزُّمَّـــخِ
يَخْرُجْنَ مِنْ بَيْنِ الجِبالِ الشُّمَّخِ
يَزُرْنَ بَيْتَ اللهِ عِنْـــدَ المَصْـــرَخِ

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين . القاهرة ، مكتبة صبيح . ص ٤٦ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١ ، ص ١٤٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .